ملكاتنا فى ضوء الاسلام

بقلم
الاستاذ : محمود محمد عمارة
المدرس بمعهد دسوق الدينى

كان الانسان قبيل البعثة كالنائم الحالم .. يعيش فى لذة وهمية .. ويسبح فى جو قاتم .. يعكس طبيعته القاسية .. ومشاعره الجامدة .. مبتوت الصلة بالحياة ورب الحياة .. الذى خلقه فسواه .. والهمه فجوره وتقواه ! وعلى دقات الحقيقة الراعدة .. فتح عينيه .. فدبت الحياة فى جسده الهامد ..

وصحا النائم يوما .. ورأى النور .. فما أغفى ! .. بيد أنه انتفض ماردا جبارا .. ليحول التاريخ ويغير وجه الحياة .

وقد فعل ..

فأى سحر كان فى هذا الدين الجديد .. وأية عبقرية احتواها عقل محمد عليه الصلاة والسلام .. حتى استطاع أن يحول الضعف الى قوة .. والفردية الى جماعية .. والنشاز البغيض .. الى لحن طلى وايقاع ساحر ؟

كيف استطاع هذا الدين بمبادئه أن يخلق من نواة ضائعة وسط الرمال العفراء شجرة باسقة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .. تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ؟

ان الجواب يسير .. لا يختلف فيه اثنان .. ولا ينتطح عنزان كما يقولون: فالاسلام دين ملك على الانسان أقطاره كلها ..

رضى به عقله .. وقبلته نفسه .. واطمأن اليه قلبه ..

فلم تبق هناك فى طبيعة الانسان المعقدة منطقة مجهولة .. لم يشرق فيها شعاعه دافئا دافقا .

ومتى أصبح الدين كذلك .. ارتبطت ميول الفرد ومشاعره كلها .. واتجهت نحو غاية واحدة فى خدمة الانسان .. وبرىء من الانفصال الشبكى بين ملكاته .. وبذلك يغدو لبنة حية فى البناء الكبير ..

وتلك دعوى .. تحتاج الى دليل :
ان صلاة العقل التفكير ..

ومن هنا نجد الاسلام يفتح للعقل أبواب الفكر الحر على مصاريعها .. لينظر ويعتبر .. ويستكنه أسرار الحياة المحيطة به .. ويغرد على شجرة الحقيقة ما شاء له التغريد ..

اقرأ قوله تعالى :

« فاعتبروا يا أولى الابصار »

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »

« وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وانهارا .. ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين .. يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

فالله سبحانه وتعالى يهيب بالعقل أن يتقدم .. وأن يكون تقدمه انطلاقا .. وأن يكون انطلاقه واعيا .. بعد أن هيأ له الجو المناسب .. الذى يحيا فيه بعيدا عن الجمود والانطواء ..

والمتأمل فى الآية الأخيرة يحس كأن الله سبحانه يدعوا القلب فى نفس الوقت أن يزامل العقل فى رحلته تلك .. ليتملى هذه اللوحة البهيجة .. التى رسمتها ريشة القدر الأعلى .

آو العقل ، والخبيث ما تضرر به الجسم أو العقل . وأى شىء أضر وأخبث : فهنا جبال راسيات عاليات ..

وأنهار تجرى فى رفق وحنان ..

وثمرات يانعات راق منظرها وتنوعت أشكالها .. وليل عسعس .. وصبح تنفس !

وتلك لوحة جميلة .. يقف حيالها القلب الذكى نشوان مغتبطا .

واذن فقد وصلنا الى النقطة الثانية وهى :

أن الاسلام يحرص على تربية الذوق الجمالى فى قلب الانسان .. داعيا البشر الى أن يملأوا قلوبهم بعاطفة الحب ..

تلك العاطفة النبيلة التى هى الاساس الركين فى بناء كل مجتمع بشرى ..

وكما يجد الانسان متعة فى أن يكون موضع حب غيره من الناس .. يجد نفس هذه المتعة اذا ما وجد قلبه يحب كل ما فى الحياة من جمال ..

قال صاحب « فى ظلال القرآن » :

عند تفسير قوله تعالى :

« ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » :

« واللفتة الى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها .. داخل اللون الواحد بعد ذكرها الى جانب ألوان الثمار :

« فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها »

تهز القلب هزا .. وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالى العالى .. التى تنظر

الى الجمال نظرة تجريدية .. فتراه فى الصخرة .. كما تراه فى الثمرة .. على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة .

وفى ظلال القرآن ينمو الوجدان ويسمو .. فى هذا الجو النظيف الذى يدعو اليه ويهتف به من خلال آياته :

« ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد »

« النظافة من الايمان »

أما فيما يتعلق بالنفس .. نجده وقد ساير طبيعتها .. ولم يحاول أبدا أن يكبتها أو يقف حجر عثرة فى سبيل متعتها ..

فليس هو بالدين القامع .. الذى يفرض الكبت على الطبائع .. بيد انه حاول تطوير رغباتها .. والسير بها الى غاية أسمى .. بحيث تشبع رغبتها بطريقة شريفة . تليق بكرامة الانسان كخليفة لله فى الأرض .. متمشيا فى ذلك مع أحدث المبادىء التربوية ..

فأنت اذا قلت لطفلك ان اللعب حرام .. وليس من حقه أن يمارسه .. وشددت عليه النكير فى ذلك .. حقد عليك .. ووجد فيك متعصبا يريد أن يسلبه حقه فى الحياة .. أما اذا اعترفت له بهذا الحق .. فى الوقت الذى تبين له فيه أنسب الألعاب وأوقاتها المفضلة .. استمع اليك .. وجاءت تربيتك بثمرتها المرجوة ..

وكذلك كان موقف الدين من نفس الانسان :

فمثلا حب المال مركوز فى جبلتها مغروس فى تربتها .

« وأحضرت الأنفس الشح »

انها تسعى فتكدسه .. ثم تقدسه : فلم يسلبها حقها فى حب المال بل ساوق منطق فطرتها فقال تعالى :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا »

فهو شىء مرغوب فيه .. لأنه بهجة الحياة .. والعمود الفقرى لها ..

ولكنه حينما تنزل اليها .. لم يزاملها فى رغبتها ويعش معها فى مستواها الحقيض ..

بل انه يأخذ بيدها الى افق أرقى .. فيبين لها أن المال وان كان أساس الحضارات .. الا انه ينبغى أن يكون وسيلة لعمارة الآخرة .. « وان الدار الآخرة لهى الحيوان »

ولذلك نراه يقول على أثر ذلك « **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** » واذن .. فقد فتح الدين الاسلامى للعقل والنفس والقلب

نوافذ .. أطلت منها على عالم جديد .. فخرج العقل من كهف مظلم الى ميدان فسيح الرحبات .. ووجد القلب فيه متعته .. وحقق رغبته ..

ورعت النفس فى مرعى خصيب ففقدت بين مرابعه خلقا جديدا .. والى هنا ظهر لنا جليا أن الاسلام خاطب ملكات الانسان كلها .. فاستيقظ العقل .. وبدأ يمارس حقه فى الحياة ..

غير أن الحقيقة التى يكتشفها تظل جافة محدودة الأثر .. اذا لم يسعفها القلب بحرارته .. لتستحيل فى أطوائه الى يقين راسخ دونه رسوخ الجبال !

ومتى استقر المبدأ فى القلب .. سرى فى العروق دما .. وفى الأعصاب نشاطا .. وعاش فى السلوك عملا .. بعد أن كان فى القلب أملا . لأن النفس — على أثر ايمان القلب ستصدر أوامرها للأعضاء فتنشط فى العمل .. فتبصر العين الخير . وينطق اللسان بالحق .. وتهتز الأعصاب بالهدى .. فاذا الانسان شعاع من النور يهدى الحائرين .. وقوة دافعة تمتطى ظهر الحياة فتسخرها لخدمة الانسان .

يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز :

« الايمان معرفة تتجاوب أصداؤها فى أعماق الضمير .. وتختلط مادتها بشغاف القلوب .. فلا يجد الصدر منها شيئا من الضيق والحرج .. بل تحس النفس فيها ببرد وثلج .. الايمان تذوق ووجدان .. يحمل الفكرة من سماء العقل الى قرارة القلب .. فيجعلها للنفس ريا وغذاء يدخل فى كيانها .. ويصبح عنصرا من عناصر حياتها ... فهنالك تتحول الفكرة قوة دافعة فعالة خلاقة .. ولا يقف فى سبيلها شىء فى الكون الا استهانت به أو تبلغ هدفها »

ان حديثك وان كان فى سمعك سلسلا عذبا .. لا يخط لنفسه مجرى عند رجل خامد الفكر بارد الشعور !

والمبدأ الذى تدعو اليه وان كان رائعا شاملا .. غير أنه لا يستقر الا فى قلب ذواقة .. رقيق وحساس !

هيىء لحديثك الجو .. وأعد لمبادئك التربية الصالحة .. كى تنمو وتزكو .. وتتخذ لها فى قلب المرء مستقرا ومقاما ..

تماما كالفلاح بين الحقول .. انه يوجه نشاطه أولا الى تطهير الارض من الطفيليات والحشرات .. وبعد ذلك يستطيع أن يضع البذور فتهتز وتربو .. تباهى بخضرتها زرقة السماء ..

وكذلك فعل الاسلام الخالد : أيقظ العقل .. وطهر النفس وزكى الحس .. فتخلصت من أوضار وأباطيل رانت عليها دهرا طويلا .. فأوجد المجال

الحيوى.. الذى ستثمر فيه مبادئه ما شاء لها من فضائل وشمائل .. ثم بدأ يرسل اشاراته « اللاسلكية » الى جهاز محكم مستعد للاستقبال ..

هـذه الاشارات انما هى مجموعة من القواعد والعقائد .. لتكون أساسا لحضارة ستبقى على مدار الزمان ..

فما هى تلك القواعد والعقائد ؟

موعدنا العدد القادم ان شاء الله ...

توجيهات صوفية

من أدب العـارفين

روى شيخ التصوف الاكبر محيى الدين بن عـربى . فى محاضرة الابرار ، ومسامرة الاخيار قال : التقى ابراهيم بن ادهم بشقيق البلخى بمكة ، فقال ابراهيم لشقيق : ما بدأ أمرك الذى أبلغك هذا ؟ قال : مررت ببعض الفلوات ، فرأيت طيرا مكسور الجناحين فى فلاة من الارض . فقلت انظر من اين يرزق هذا .. فقعدت بحذائه ، فاذا أنا بطير قد أقبل فى منقاره جرادة فوضعها فى منقار الطير المكسـور الجناحين ، فقلت لنفسى : يا نفس ان الذى قيض هذا الطير الصحيح لهذا الطير المكسور الجناحين فى فلاة من الارض ، هو قادر ان يرزقنى حيث كنت ، فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة .

فقال ابراهيم : يا شقيق ولم لا تكون انت الطير الصـحيح الذى أطعم العليل حتى تكون أفضل منه ، أماسمعت عن النبى صلى الله عليه وسلم « اليد العليا خير من السفلى » ومن علامة المؤمن أن يطلب أعـلى الدرجتين فى أموره كلها حتى يبلغ منازل الابرار ، فأخذ شقيق بيد ابراهيم فقبلها وقال : انت أستاذنا يا أبا اسحاق ..